

كلستر».. مجموعة معمارية ترسم أول «خريطة تفاعلية» للقاهرة الثقافية»

أحمد الهوارى ٢٠١٣/٥/١٦



خريطة القاهرة تظهر فيها الأماكن فى شكل دوائر ملونة تفاعلية

لسنوات طويلة حصرت الثقافة فى كتاب وكاتب، وربما أضيف إليهما فنان فى بعض الأحيان. عزلت الثقافة عن المواطن، وأصبحت لها «نخبتها»، وبدأ الصراع بين «المثقف»، الذى يشتركى من المواطنين، الذين لا يتذوقون الفن وسط رحلتهم، للبحث عن ضروريات المعيشة، والمواطن، الذى لا يرى فى الثقافة والفن ما يعبر عنه ولا يستخف به، ومع الوقت رضى كل فريق بحاله بعيدا عن الآخر، وبدأت النخبة ذاتها فى التحلل. أفراد أو مجموعات صغيرة تعمل كل منها بمعزل عن الآخرين، وتقتصر الفن والثقافة على ما تفعله، حتى خرجت الجموع فى ٢٥ يناير ٢٠١١ لتعيد صياغة الأمور بما يكسر الصور التقليدية، وبحسب مستجدات الواقع.

العمل بعيدا عن التعريفات السائدة كان قاسماً مشتركاً بين مجموعة من المهتمين بالهندسة المعمارية للمدن. التقوا بعد الثورة ليأسسوا معا «مختبر عمران القاهرة للتصميم والدراسات» (كلستر). بدأوا حلمهم الخاص فى إيجاد تجمع من الأشخاص المهتمين بقضايا «عمران المدينة»، وحققوا حلما نشترك معهم فيه، خريطة تفاعلية للأماكن الثقافية فى القاهرة الكبرى. بدأوا نواتها على موقع إلكترونى باسم «منصة المبادرات العمرانية بالقاهرة».

بدأ تحقيق حلم الخريطة بما لاحظته المجموعة، التى تضم «عمر نجاتى» و«بيث سترايكر» و«باسمينا طه» و«ميران محمد» و«إيمى عريف» و«هنا جاد» و«أحمد قدرى»، أن عدد المؤسسات الثقافية والتنمية الخاصة فى مصر فى ازدياد بعد الثورة، وظهرت لديهم الرغبة فى إيجاد «طريقة للتكامل» بين تلك المؤسسات من خلال إدارة مشتركة للموارد وتنسيق الأنشطة. صنفوا تلك المؤسسات وأنشطتها مبدئياً فى سبعة أقسام هى مبادرات التصميم، المبادرات الفنية، المبادرات الحقوقية، المبادرات الإعلامية، المؤسسات الأكاديمية، المؤسسات الدولية، ومبادرات المطورين العمرانيين أضيف لها لاحقا، وبعد اجتماعات مع ممثلين لكل قسم من تلك الأقسام، جزء ثامن مخصص لـ«المساحات العامة».

يضم الموقع أيضا «أجنحة» فعاليات وأنشطة تمكن المؤسسات من تلافى التضارب فى المواعيد قدر الإمكان، وتتيح للجمهور التعرف على أنشطة، وفعاليات المؤسسات الثقافية المختلفة، التى تستخدم الموقع قبل حدوثها، إلى جانب «مكتبة عمران القاهرة»، وهى مكتبة متخصصة فى مجال العمارة والعمران تعود ملكية الكتب الموجودة بها إلى أشخاص عاملين فى مجموعة صغيرة من المؤسسات الخاصة وضعوا تلك الكتب فى مقار مؤسساتهم و«أرشفوها» طبقا لأكواد تلك الكتب الدولية، وأتاحوا على الموقع الإلكتروني نسخة من قائمة الكتب. أبحث على الموقع عن الكتاب الذى تريده، واذهب إلى المؤسسة الموجود بها لقراءته.

وعلى الرغم من الأقسام الثمانية، التى تحتويها الخريطة فإن نصيب المؤسسات الثقافية الحكومية فيها ضئيل، ويكاد ينحصر فى أهم مؤسسات وزارة الثقافة. يقول «عمر نجاتى»: المشروع بدأ برؤية عمرانية متوازنة، وارتبطت بمؤسسات المجتمع المدنى غير الحكومية، وعلى الرغم من هذا فإن الخريطة تضمنت بعض المواقع الحكومية، التى على علاقة مباشرة بالمجتمع المدنى. كما كان عدد العاملين فى المجموعة لا يساعد على أن نضع بأنفسنا كل المؤسسات على الخريطة، ولهذا صممنا الخريطة لتكون تفاعلية يستطيع كل فرد أن يضيف إليها بعد تسجيله نفسه فى الموقع، ونقدم تدريبا للراغبين فى تعلم كيفية الإضافة للخريطة لا نمانع أن يكون موظفو وزارة الثقافة من بينهم، بالعكس نرى أن هذا يضيف للخريطة.

«الرؤية العمرانية» التى يتحدث عنها «نجاتى»، مدرس التخطيط العمرانى بجامعة أكتوبر للعلوم، تشكل الأرضية التى تنطلق منها أعمال المجموعة، ومنها مشروع إيجاد حل لمشكلة الباعة الجائلين، التى يرون أنها مشكلة «عمرانية» تدور حول «المساحات العامة». هذه المشكلة العامة موجودة من قبل الثورة، ولكن مع انهيار المنظومة الأمنية رأى أطراف المشكلة أن من حقهم تقرير ما يحدث فى الشارع لتصبح معركة المساحات العامة معركة مرجعيات تمثلها ثنائية «إنت اللى هتكرن ولا أنا اللى هبيع»، ومن الشخص أو الجهة التى تحدد الحق أو الباطل.

إن الحدود بين العام والخاص واضحة فى العديد من الدول، ولكن تلك الحدود فى مصر رمادية واسعة اختفى معها «الرصيف»، وهو ما يعد تعبيرا عمرانياً على عملية إعادة تعريف العام والخاص فى «معركة المرجعيات»، التى تعاد صياغتها الآن فى المساحات العامة. يقول «نجاتى» إن هذه المعركة تشهد عملية تفكيك وحراك شديدة، وفى مواجهة هذا الحراك تقف النخبة والطبقة المتوسطة العليا، التى كانت تحت حماية النظام السابق، لتشهد امتيازاتها تقل دون أدنى محاولة لفهم تلك المشكلة، والعملية المركبة التى تحدث فى «المساحات العامة»، والتى تطرح أسئلة جديدة من نوعية «مين اللى قال إن شارع ٢٦ يوليو المفروض يبقى للعربيات؟».

مشكلة الباعة الجائلين ليست بسيطة، ولا يمكن القضاء عليها بالحملات الأمنية فقط، فنظام العمل فيها يخضع للقانون العرفى وقوة العائلات، وتراعى فيه المسافات بين كل بائع وآخر، وبين كل بائع والمحل الذى يقف أمامه، والاتفاق على أسعار البضائع والحد الأدنى لسعر كل سلعة، وتدفع فيه الرشاوى والإتاوات. هذا النظام يتفاعل معه «كلستر» بما تطلق عليه «صراحة شديدة»، وتحرر فى إعادة الحسابات للوصول إلى حلول.

أحد المشاريع الأخرى التى تعمل عليها «كلستر» هو «دروس لا رسمية»، الذى يحاولون من خلاله «فك شفرات وأكواد» ما يعرف بالعشوائيات، والذى ترى المجموعة أنه مصطلح خاطئ يحمل إدانة مسبقة وتسمية «العمران غير الرسمى». هذا العمران، وعلى عكس الشائع، يبنى وفق نظام محدد وقوانين عرفية واضحة تراعى حدود الجيران بمنطق مختلف عن السائد، ولكنه فعال فى مناطق بشدة. تعمل المجموعة على فهم هذا النظام وقوانينه ومنطقه، ومحاولة إدراجه فى المناهج الأكاديمية. يحلمون بأن يكسروا بهذا الخط الفاصل بين الثقافة «العالية» لدى النخبة وبين الرزخ الحقيقى الذى يحدث على الأرض بأسلوب يلخصه نجاتى قائلا: «لدى الناس درجة أخرى من المعرفة هى أعمق وأكثر دراية بواقعهم، لو عايز تبقى فاعل شمر إيدك واتعلم من الناس دى».